الاستراتيجية العسكرية

اللواء الركن : حسن البدري

بدءا بالملاحظة العابرة ، المشفوعة بالبحث المتاني ثم التجربة العريضة ، فالنظرية الصحيحة ، المتبوعة بالتطوير الواعي ، تتبلور استراتيجية الدولة الصاعدة ، وتتحدد مضامينها وأبعادها ·

ثم تروح هذه الاستراتيجية بعد أن ينضج عودها ويتاكد وجودها تواكب مسيرة الدولة في ركب الحضارة الانسانية ، صعودا مع نموها وازدهارها ، ثم هبوطا مع انكماشها وانهيارها ، الى أن تخلفها نظرية جديدة ، تقوم هي الاخرى على الملاحظة ثم التجربة ، ولا تنفك تتطور حتى تثمر استراتيجية جديدة ، أكثر مواءمة لمتطلبات العصر ، وسرعان ماينتشر ذكرها بأول انتصار تحققه ، حتى يكون (لكل زمان دولة ورجال)

● دور النشوء والارتقاء :

وعادة ماتستغرق الدورة الكاملة لنشوء استراتيجية الدولة ثم ارتقائها عدة أجيال أو بضعة قرون ، فكهذا كان الحال مع الاستراتيجية الفرعونية في بداية عصر الامبراطورية القديمة عام ١٥٨٠ قبل الميلاد ، ثم الاستراتيجية الفارسية فالمقدونية فالرومانية البيزنطية التي خلفتها الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام وتمكنت فيما لم يتجاوز نصف القرن أن تقوض صروح امبراطوريتين من أعتى وأعظم امبراطوريات التاريخ ، وأن تقيم على أشلائهما دولة لم يسبق قيام مثلها في العالمين من حيث الاتساع والسؤدد ، في هذه الفترة بالغة القصر ، ثم تذود عن حياضها وتصون كيانها على امتداد سبعة قرون ·

في صدر الإسلام

وبقدر ماكانت الفتوحات العربية الكبرى في صدر الاسلام فريدة في نوعها كانت بعيدة التأثير في الحضارة الانسانية ، اذ غيرت فيما بين عام ٨ ـ ٦٠ هـ ٦٣٠ ـ ٦٨٠٠ ميلادية خريطة العالم المعروف وقتئذ ، فلم تبق منها على شيء قديم ، واستبدلت بالجهل والجور والانحطاط الانساني علما وعدلا وسموا بشريا ، ثم رسمت أسلوبا كريما للحياة على الارض الممتدة من الصين شرقا الى مراكش غربا ·

وتجدر ملاحظة أن استراتيجية صدر الاسلام قد انفردت عما سبقها من استراتيجيات في أنها اكتملت في طفرة واحدة لم تتجاوز مدتها بضع سنين ، تسنمت بعدها الذروة بين النظريات الحربية السابقة لها والسائدة معها ، ثم ظلت توفر المنهل الذي لاينضب معينه ، ليستقي منه فلاسفة الحرب قوانين القتال ، ويقتبسوا فنون المعارك من أكثر المصادر أصالة ونقاء ·

● بين بدر وكاظمة :

وعلى قدر ماستغرقت دورات النشوء والارتقاء السابقة عليها من زمن طويل انصهرت خلاله الاستراتيجية الفرعونية أو البيزنطية حتى اكتسبت النقاء والاصالة ، كانت طفرة الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام وجيزة وشاملة ، اذ تم فيما بين أول نصر للمسلمين داخل الجزيرة العربية ـ معركة بدر ـ عام ٢ هـ ٦٢٤ ميلادية ـ ولاول نصر لهم خارجها ـ معركة كاظمة على الحدود الكويتية العراقية الحالية عام ١٠ هـ ـ ٠٣٢ ميلادية ، تم الارتكاز على أرسخ القواعد المتفوقة في فن الحرب ، أنالت المسلمين نصرا تلو نصر ، من تتابع سريع وانجاز رائع الى أن أتم القائد المظفر المغيرة بن شعبة ، فتح بلاد فارس سنة ٦٦٩ ميلادية ، ثم وصل القائد الملهم عقبة بن نافع الى شاطيء المحيط الاطلسي عند المغرب الاقصى ٦٢ هـ سنة ٦٨٢ ميلادية حيث قال كلمته المشهورة ·· (والله لو علمت أن بعدك ارضا لخضتك اليها غازيا في سبيل الله) ·

وهكذا تسيدت الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام ميادين القتال ولما يمض نصف قرن على ظهور مرجع الامبراطور والقائد

البيزنطي موريس عام ٥٨٠ ميلادية ، الذي عالج فيه أصول الاستراتيجية وفنون الحرب طبقا للتجربة البيزنطية العريضة ، التي صقلتها حروب الاستنزاف المتتالية مع فارس ، حتى استقرت في صورتها المتطورة التي كانت القول الفصل لذلك الزمان والمكان ، واقتنع بها الكافة حتى اصطدمت بالاستراتيجية العربية الصاعدة ، فاهتزت دعائمها وشيكا ، ثم وطأتها سنابك خيل العرب وهي تطوي الفيافي والوهاد شرقا وشمالا وغربا ، لتملأ الدنيا عدلا ونورا بعد أن ملأتها الوثنية ظلما وظلاما ٠

ونخرج مما سبق بأن استراتيجية صدر الاسلام ، بمجرد أن تجاوزت حدود الجزيرة العربية ـ دخلت الامتحان الذي لم تصادف فيه فراغا حضاريا ولا تخلفا علميا ، بل واجهت منذ اللحظة الاولى استراتيجيات فارس وبيزنطة الراسخة الاركان ذات التجربة العريضة في الصراع الطويل بين القسطنطينية والمدائن ، الذي استغرق عدة قرون حتى بلورها موريس آخر الامر في كتابه الشهير عن قوانين الحرب وقواعد القتال وضمنه أشكال المناورة المختلفة وتكتيكات المعركة من تقدم وهجوم ودفاع ، كما عالج فيه تنظيم الجيوش وتشكيلها في وحدات ميدانية تضم ٤٠٠ مقاتل أسماها التاجما ـ أي الكتيبة ـ وتشكيلات ميدانية يتراوح حجمها بين ٦٠٠٠ ـ ٨٠٠٠ مقاتل أسماها الميروس ـ أي الفرقة ـ

ويظهر مما سبق أن الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام لم تختل بأرض قفر أو مجتمع متخلف وهي تطوي الارض بجيوشها الزاحفة من نصر الى نصر في مسارح الحروب المعروفة وقتئذ ، وفي كل اتجاه ٠ كما أنها لم تقهر أعداءها ـ وهم كثرة ـ بفضل طفرة حضارية كما فعلت القوى الاستعمارية الكبرى عبر التاريخ وما زالت تفعل ، ولا هي ارتكنت الى تفوق كمي كما ارتكنت جحافل الهون أو جموع التتار ، وانما كان العكس هو الصحيح ، اذ وقفت أمام جيوش العرب جيوش فارس وبيزنطة اللتان كانتا وقتها في قمة الحضارة ، وتتفوقان على جيوش العرب كما وكيفا بما لاتصح معه المقارنة ٠

ورغم ذلك فقد قهرت استراتيجية العرب في صدر الاسلام استراتيجية موريس ورستم ، وانتزعت من جيوش هرقل وكسرى النصر المبين ٠

فاذا لم يكن الفضل في كل ذلك يعود الى التفوق الحضـاري ولا الكمي في عدد الجنود أو الكيفي في نوع سلاحهم وعتادهم ، فالى أي شيء يعود اذن خلاف العقيدة والحافز والاسلوب والمنهج ؟

● للقتال سبعة أسباب :

لقد أجاز الاسلام الحنيف القتال لسبعة أسباب هي : الدفاع عن العقيدة وعن الوطـن وعن النفس وعن العـرض وعن المال وعن المستضعفين في الارض وضد الدعاة ، وفي نحو ذلك قال سيد المرسين وخاتم النبيين ٠٠ (من قتل دون نفسه فهو شهيد ، ومن قتل دون عرضه فهو شهيد ، ومن قتل دون ماله فهو شهيد) ٠

والاسلام لايبدأ أحدا بعدوان ، وفي ذلك يقول جل وعـلا : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ، ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين) سورة البقرة ١٩٠

وتحتل فكرة السلام المقام الاسمى بين غايات الاسلام ومقاصده ، فيصرح القرآن الكريم في أكثر من موضع أن الثمرة المرجوة من اتبـاع تعاليم الدين الحنيف هي الاهتداء الى طريق السلام والنور مصـداقا للآية الكريمة (قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ٠ يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم) المائدة ١٥ ـ ١٦

والسلام في مبادىء الاستراتيجية العربية أصل من أصول العقيدة ، وعنصر من عناصر التربية الدينية القويمة ، وهدف يملأ ضمير المسلم بقيم المجتمع النبيلة ، لبناء الامة ،وفي ذلك يقولسبحانه وتعالى : (ياأيها الذين آمنوا ادخلوا في السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين) البقرة ٢٠٨

وينظر الاسلام الى الانسان نظرة التكريم والاحترام ، ويضـع من القواعد والاحكام مايصون له كرامته ويحفظ حقوقه ، وكرامـة الانسان حق نوه عنه سبحانه وتعالى في قوله : (ولقد كرمنـا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا) الاسراء ٧٠

وطريق الدعوة الى الاسلام يقوم على الاقناع العقلي المدعم بالادلة ، وايقاظ المشاعر النبيلة وتحريكها عن طريق الموعظة الحسنة والمناقشة الموضوعية ،كما يفهم من قوله تعالى : (ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن ان ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين) النحل ١٢٥ ·

وليس في القرآن آية واحدة تشير الى أن القتال وسيلة مشروعة لحمل الناس على اعتناق الاسلام ، وانما تشير آيات القتال الى أن الحرب قد شرعت للاسباب النبيلة السبعة آنفة الذكر ·

والاسلام حين شرع القتال نأى به عن الطمع والاستئثار واذلال الضعفاء ، وابتغاه طريقا الى الرشاد والسلام ، واقامة الحياة على موازين العدل والمساواة ، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى ·· (اذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ، وأن الله على نصرهم لقدير · الذين أخرجوا من ديارهم بغير حق الا أن يقولوا ربنا الله ، ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوي عزيز · الذين ان مكناهم في الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الامور ·) الحج ٣٩ ــ ٤١ ·

● حكمة القتال :

فالاذن بالقتال موافق لما تقضي به سنة التدافع بين الناس حفظا للعدالة ودرءا للطغيان ، وتمكينا لارباب العقائد وأصحاب العبادات أن يعبدوا الله ، ولا يتخذوا الحرب وسيلة للخراب والفساد ، أو اذلال الضعفاء واشباع الشهوات ونيل المطامع الدنيئة ·

ثم يقول سبحانه وتعالى : (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لايحب المعتدين · واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، والفتنة أشد من القتل ، ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ، فان قاتلوكم فاقتلوهم ،كذلك جراء الكافرين ·

فان انتهوا فان الله غفور رحيم ۰ وقاتلوهم حتى لاتكون فتنة ويكون الدين كله لله ، فان انتهوا فلا عدوان الا على الظالمين) البقرة : ۱۹۰ ـ ۱۹۳

فهذه الآيات البينات تأمر المسلمين أن يقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونهم ، وتأمرهم بتتبعهم حيث وجدوا ، وتنهاهم عن الاعتداء ، ثم تخلص الى بيان الغاية التي تضع الحرب عندها أوزارها وهي ألا تكون فتنة في الدين ، وان يكون الدين خالصا لله ، ليحصل الناس على حريتهم بلا اضطهاد ولا الزام ولا تعذيب ، فاذا ما تحققت هذه الغاية واطمأنت اليها النفوس ، وجب ايقاف القتال ۰

● شرعية القتال :

وينطبق على أسباب الحرب في الاسلام تعريف الحرب المشروعة التي اصطلح فقهاء القانون الدولي العام اليوم على شرعيتها في حالتين :

١ ـ أن تكون دفعا لاعتداء واقع ، وهو مايعرف بالدفاع عن النفس ۰

٢ ـ أن تكون حماية لحق ثابت ، وهو مايعرف بالدفاع عن الحقوق ۰

أما الحرب غير المشروعة في نظر الاسلام فهي التي تكون غايتها الفتح والسيطرة والتسلط ، مثل الحروب التي تسعى الى الاستيلاء على الارض التي تنتج الغذاء ، أو التي تسعى الى الاستيلاء على الارض التي تنتج الخامات رغبة في المنافسة التجارية بين الدول والاحتكار الذميم ۰

● الجهاد أسمى المراتب :

وتتبلور الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام في عقيدة الجهاد في سبيل الله تنفيذا لأوامره جل وعلا (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج) الحج ۷۸ ۰

وفي قوله سبحانه وتعالى : (ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .. يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا في التوراة والانجيل والقرآن ومن أوفى بعهده من الله فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) التوبة : ١١١

وعن أبي داود باسناد صحيح عن أنس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (جاهدوا المشركين بأموالكم وأنفسكم والسنتكم) أخرجه النسائي ، وعن أبي الدرداء رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (من اغبرت قدماه للجهاد في سبيل الله حرم الله سائر جسده على النار) أخرجه الطبري في الاوسط .

ولقد سبقت حكمته جل شأنه أن تكون أمة محمد أمة مجاهدة لاترضى بالذل ولا تستكين الى هوان ، لذلك أوجب الاسلام على المسلمين الجهاد في سبيل اعلاء كلمة الدين ، ونصرة الحق ، والدفاع عن العقيدة والوطن والنفس والمال والعرض ، وضد الدعاة .

وثواب الجهاد عظيم ، يقول عنه سبحانه وتعالى : (ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الانهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم . وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين) الصف ١٠ ــ ١٢

وتتميز عقيدة الجهاد في سبيل الله بأنها عسكرية وتربوية فهي لاتكتفي بالمحتوى المادي العسكري كما هو حال كل العقائد العسكرية الاخرى ، بل تشمل أيضا محتوى تربويا روحيا على أعظم درجة من النبل والسمو ، ذلك لأن الجهاد في الاسلام ثلاثة أنواع :

١ ــ جهاد النفس .

٢ ــ وجهاد الشيطان .

٣ ــ وجهاد العدو الظاهر .

● جوهر استراتيجية صدر الاسلام :

ان الكيان العسكري للامة يقوم على قاعدة مادية وروحية عريضة ، دعائمها الايمان الراسخ والعقيدة القوية ، والمقاتل الشجاع ،والاهداف النبيلة ، وكلها من أخص خصائص الاستراتيجية العربية في صدر الاسلام ٠

وازاء هذا الوضوح والشمول لاستراتيجية صدر الاسلام يصبح السؤال الملح هو ٠٠ كيف غاب عن علماء عصرنا الحديث تلك الحقائق التي يطرحها التاريخ الانساني عن أنصع عهوده ضياء وسناء ، رغم عوامل الاغراء العلمي الكثيرة الجديرة بجذب اهتمامات الباحثين لسبر أغوار، وكشف أسراره ؟

فالملاحظ أن أغلب فلاسفة الحرب وعلماء التاريخ العسكري قد بعدوا بأقلامهم عن الخوض في أحداث هذا العهد الجسام ، فالكاتب العسكري الراحل السير بازيل ليدل هارت لم يشر في كتابه عن الاستراتيجية ولو بسطر واحد عن صدر الاسلام ، رغم اطنابه في الحديث عن كافة تفاصيل الاستراتيجية في العصور السحيقة والوسيطة والمعاصرة ٠

أما القلة التي تناولت هذا العهد بالبحث فيعيب منهجهم ايجاز مخل وابتسار مذموم ، ومن أبرزهم الماريشال برنادلو مونتجمري ، الذي ذكر في كتابه عن تاريخ الحروب (أن تمزق الامبراطورية الرومانية في القرن الرابع الميلادي نقل مركز قوتها شرقا الى بيزنطة التي خاضت في القرن السابع صراعا داميا مع العرب من أجل البقاء) ٠

(وعندما وصلت جيوش العرب الى جبال طوروس ووهاد الاناضول الجنوبية كادت امبرطورية هرقل أن تلفظ أنفاسها لولا تحول العرب نحو الغرب ، واندفاعهم السريع على امتداد ساحل أفريقيا الشمالي حتى دخلوا الاندلس عام ٧١٣ ميلادية ، واقتربوا من مشارف باريس بعد ذلك بسبع سنوات حيث خاض عبد الرحمن الغافقي معركة بلاط الشهداء ضد شارل مارتل) ٠

● البداية كانت في بدر :

لقد كانت بداية هذه الامجاد لحظة أن كلف الله عباده المسلمين بحمل دعوته الى العالمين بالحكمة والموعظة الحسنة والمجادلة بالتي هي أحسن ، في قوله تبارك وتعالى : (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون) سورة آل عمران ١٠٤ ·

فكان أن خرج محمد عليه أفضل الصلاة والسلام من المدينة على رأس ٣٠٥ من أوائل المسلمين ، يتعاقب منهم الرجلان والثلاثة على البعير الواحد ، ولا يملكون سوى جوادين اثنين ، بينما جيش المشركين يبلغ ٩٥٠ رجلا ، بينهم مائة فارس وسبعمائة بعير ، ورغم أن المقارنة العددية تظهر المهمة مستحيلة التنفيذ من النظرة الاولى ، اذ بلغ تفوق المشركين على المسلمين ٣ ــ ١ ، وتفوقهم في الفرسان ٥٠ ــ ١ فان النصر كان لمحمد وصحبه ، وهو مايفرض على خبراء التاريخ العسكري وهواته ضرورة البحث عن أسبابه ومقوماته ·

فعندما نزل الرسول أدنى بدر مساء ١٧ رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وعلم أن قريشا قد سبقته الى بدر قال لأصحابه : (هذه مكة قد ألقت اليكم أفلاذ أكبادها) ·

واستشار النبي أصحابه في اختيار أرض المعركة ، فقال الحباب ابن المنذر (انطلق بنا الى أدنى بئر الى القوم فاني عالم بها وبآبارها ، ثم نبني عليه حوضا ،ونقذف فيه الآنية ، فنشرب ونقاتل ، وتغور ماسواها من الآبار) ·

فاستحسن النبي رأيه ، ورتب صفوف المسلمين أمام مورد الماء ، وحمل الرجال في الصف الاول الرماح القصيرة والسيوف ، أما الصف الثاني فقد حمل الرماح الطويلة ، بينما تسلحت الصفوف التالية بالسهام والنبال·

وكان النبي صلى الله عليه وسلم أول من قاتل بهذا الاسلوب المبتكر من العرب ، فحقق لجيشه أمن السيطرة من مركز قيادة

واحد ، كما حقق العمق في تشكيل قتال المسلمين ، واستغل نقاط الضعف في أسلوب المشركين في الكر والفر ، اذ حطم هجماتهم على بنيان جيشه المرصوص ، وبعد أن تراخت سواعدهم ورواحلهم ، وسرى فيهم الوهن والخور ، تقدمت صفوف المسلمين للاجهاز عليهم ، فسقط من المشركين سبعون قتيلا ، وأسر المسلمون مثلهم ٠

بدأت المعركة بالمبارزة التي طلبها عتبة بن ربيعة وأخوه شيبه وابنه الوليد ، فبرز لهم علي بن أبي طالب وحمزة بن عبد المطلب وعبيدة بن الحارث ، وقتلوا المشركين الثلاثة ٠

وأمر الرسول جيشه ألا يحمل على المشركين الا بأمره ، وحتى يتجنب خطر التفاف قريش على أجنابه أمر القوم ٠٠ (ان اكتنفكم العدو فانضحوه عنكم بالنبل) ٠

وبعد أن تحطمت هجمات قريش على صخرة صمود صفوف المسلمين ، أخذ النبي حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريش وقال : (شاهت الوجوه) ثم نفخهم بها وأمر أصحابه أن يشدوا عليهم ، فكان نصر المسلمين الاول ، الذي ارتبطت عوامله بعمق الايمان ، وصدق الاقبال على الجهاد ، وبذل قصارى الجهد وغاية الطاقة فيه ، ذلك لاقتناع الكافة أن المقاتل المؤمن صائر الى احدى الحسنيين ـ النصر المؤزر ، أو جنة الخلد ـ ٠

● في مواجهة هرقل ويزدجرد :

ثم لم يمر قرن واحد على بدر حتى كان المسلمون قد أكملوا المسيرة ، ووصلوا الى بحر الارال شمالا ، ومنابع النيل جنوبا ، وحدود الصين شرقا ، وخليج بسكاي غربا ٠

وطوال هذا القرن ظل العرب يحققون الانتصارات المذهلة بجيشهم الذي كان أبدا أقل عددا وعدة من جيوش الاعداء ، الا أنهم اعتمدوا على الاستخدام الذكي لفنون القتال خفيف الحركة ، والهجوم الفائق المرونة في ميادين القتال المفتوحة ، تطبيقا للآية الكريمة : (ياأيها

الذين آمنوا اذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم الادبار . ومن يولهم يومئذ دبره الا متحرفا لقتال أو متحيزا الى فئة فقد باء بغضب من الله ومأواه جهنم وبئس المصير) الانفال ١٥ ـ ١٦

هذا بالاضافة الى الصمود والثبات والصبر في وجه العدو تطبيقا للآية الكريمة (ياأيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون . وأطيعوا الله ورسوله ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم واصبروا ان الله مع الصابرين) الانفال ٤٤ ـ ٤٥ .

بهذه التعاليم الربانية حطم خالد بن الوليد وأصحابه جيش هرقل البالغ عدده ٥٠ ألف مقاتل في الواقوصة على ضفاف اليرموك ، وأجبر امبرطور بيزنطة على الفرار بجلده وهو يصيح (سلام عليك ياسوريا ، سلام لالقاء بعده) .

وبها أيضا مزق سعد بن أبي وقاص قائد العرب في العراق جيوش رستم في القادسية خلال ليلة الهدير عام ١٥ هـ مارس ٦٣٧ ، وعندما أطل الفجر بنوره تحولت المعركة الى سحق ، واخترق العرب جيش الفرس فعثروا على رستم فوق سريره وقتلوه ، وسرعان ماتبعثر الجيش الفارسي وانهار .

ثم مزق العرب جيوش يزدجرد في معركة المدائن عام ١٥ هـ (أبريل ٦٣٧) فدالت بذلك دولة الاكاسرة في أقل من خمس سنين .

لقد اعتمد نصر العرب المؤزر من ضمن ما اعتمد عليه على شجاعة المسلمين الاوائل المنقطعة النظير ، التي وصفها عدوهم القائد البيزنطي نقفور فوقاس فقال .. (كانوا يحطمون أقوى الهجمات عليهم ، وبمجرد أن يلمسوا من عدوهم استرخاء أو وهنا ينقلبون الى الهجوم ، ويشنون عليه هجمة صادقة ، ثم لايثنيهم عن النصر شيء في الوجود) .

● ركائز استراتيجية صدر الاسلام :

لقد تحقق للعرب النصر الخاطف بفضل خفة حركة فرسانهم ، وقدرتهم الفائقة على الالتفاف على أجناب العدو وتطويقه ، ثم الوصول

الى مؤخرته وعمقه ، حيث يخلون باتزانه الاستراتيجي في مسرح الحرب ، ويوقعون في صفوفه الارتباك والشلل التام ·

ثم اعتمدت جيوش العرب على الروح المعنوية العالية ، النابعة من عقيدة الاسلام وتعاليمه السامية ، بالاضافة الى قدرتهم غير المحدودة على تحمل شظف العيش ومشاق الحياة ، والاستغناء عن بهرج الدنيا ومفاتنها ·

بفضل ماسبق ذكره وصلت فتوحات صدر الاسلام الى مدى لم تبلغه غيرها من الفتوحات ، واستقبلت جيوشهم في كل مكان كمحررين للشعوب المغلوبة على أمرها ·

وسرعان ماعتنق الكافة دين الاسلام طواعية ، وعن اقتناع وعقيدة ، ثم ظلوا يدينون به حتى وقتنا الحالي فيما عدا الاندلس ·

ويقول جون باجوت جلوب في كتابه عن الفتوحات العربية الكبرى في صدر الاسلام : ان العرب أبرزوا أنفسهم منذ الرسالة المحمدية على صعيد عالمي بفضل تفوقهم العلمي وقوتهم العسكرية ، ولهذا أصبح تفهم شئونهم ضرورة لفهم حضارتهم التي ازدهرت منذ سارت الامبراطورية الرومانية الى زوال ·

وكان أبناء الجزيرة العربية هم وحدهم الذين أنجزوا هذه الفتوحات العظيمة ، وكانوا كلهم من أبناء البادية الرحل ، أما الشعوب التي فتحوا بلادها فكانت في الاغلب بلادا غير عربية ، كما كان معظمها وريث حضارات تليدة ، ورغم ذلك فقد ظل العرب يحتلون مركز الصدارة في تلك الامبراطورية العظيمة حتى ١٩٥ هـ سنة ٨١٣ ميلادية عندما شرع الاعاجم في التدخل في شئون الامبراطورية ·

وانه لمن دواعي الاسف أن ظلت أوروبا قرونا طويلة تنظر الى الفتوحات الاسلامية كنوع من الكوارث الرهيبة ، ولم يكن ثمة مؤرخ غربي واحد يود أن يذكر الناس بها ، ولهذا كتبت ألوف المراجع عن تاريخ الامبراطورية الرومانية والبيزنطية والفارسية بينما لم تتجاوز الكتب التي أخرجتها مطبعة الغرب عن الفتوحات العربية في صدر الاسلام أصابع اليد الواحدة ، وحتى هذا العدد القليل لم يسلم من الخطأ والانحياز ، ولم يدرك ماأحدثته الرسالة المحمدية من تبديل في المجتمع

العربي وفي العالم أجمع ، وما أنجزته من أعمال عظام في كافة مجالات الدين والدنيا .

و لاريب أن هذه الرسالة النبيلة قد أثرت بعمق في انتشار الاسلام وطبعته بمزيج من الدين والسياسة ، فلم يعان قط من ذلك التنافس البغيض الذي قام بين الاباطرة والبابوات فخلق حالة من الاضطراب والفوضى ، عانت منها أوروبا في العصور الوسطى .

هذا وقد قدر للاسلام أن يبدأ انتشاره نحو الشرق بالفتوحات الكبرى في جبهة فارس ، التي استهلها خالد بن الوليد بالحشد حول الحفير في عام ١٠ هـ مارس ٦٣٢ ، ثم التقدم منها لخوض معركة الاسلام الاولى خارج الجزيرة العربية في كاظمة على الحدود الكويتية العراقية الحالية ، وبعد أن دمر قوات العدو النظامية ، زحف على الحيرة عام ١١ هـ (٦٣٣) ثم الانبار عام ١١ هـ (٦٣٣) فاستولى عليهما رغم التحصينات المنيعة التي كانت تلف المدينتين من كل جانب .

ثم قرر أبو بكر أن ينقل اتجاه المجهود الرئيسي الى جبهة الروم ، وعبأ أربعة ألوية عقد قيادة كل منها الى أبي عبيدة عامر بن الجراح ، وعمرو بن العاص ، وشرحبيل بن حسنة ، ويزيد بن أبي سفيان .

وأصدر أبو بكر توجيهاته الى عمرو بن العاص أن يتجه بلوائه الى ايله (العقبة) ليعبر منها الى جنوب فلسطين باتجاه غزة ، أما لواء يزيد بن أبي سفيان فاتجه نحو شاطىء البحر الميت ، على حين اتجه شرحبيل بن حسنة نحو دمشق وبصرى ، وظل لواء أبو عبيدة بمثابة الاحتياطي الاستراتيجي للمسرح .

وراحت ألوية المسلمين تتوغل في فلسطين وسورية ، وتشتبك مع الروم في معارك حاسمة ، وعندما اقتربت ساعة الاجهاز على العدو كتب أبو بكر الى خالد أن يتحول من العراق الى الشام ، فسلم القيادة الى المثنى بن حارثة ، وغادر عين التمر في مطلع عام ١٢ هـ ٦٣٤ محاذيا لوادي السرحان ، ثم قام بحركة التفاف كبرى حول جناح ثيودوروس قائد جيش الروم ، قطع فيها نحو ٣٠٠ كيلو متر في صحراء الحمد التي ينعدم فيها الماء ، حتى وصل الى تدمر وفاجأ العدو فأذهله .

وتحدث الفيلد مارشال أروين روميل عن هذه المناورة الرائعة فقال عنها : (لقدكانت حركات خالد فيصحراء الحمد ملهمتيفي مناوراتي الواسعة في صحراء ليبيا ومصر ضد الجيش الثامن البريطاني فيما بين ١٣٢١ هـ و ١٣٢٣ هـ - ١٩٤٣ - ميلادية ·

وتحول خالد نحو دمشق حيث اشتبك مع العدو في مرج راهط ١٢ هـ (أبريل ٦٣٤) ثم اتجه جنوبا حتى اتصل بباقي ألوية المسلمين في درعا ١٢ هـ (مايو ٦٣٤)

ولم تكن المهمة سهلة أمام ألوية المسلمين في سوريا وفلسطين ، فقد كان عليها أن تقاتل الفيالق الرومانية ذات الشهرة الاسطورية والمثل الاعلى في الانضباط العسكري ·

● التنظيم والتسليح :

كان السيف والمزراق سلاح جندي المشاة البيزنطي ، بالاضافة الى الخوذة والدرع والزرد ، كما كان القوس والنبل سلاح الفرسان الخفيفة التي تستطيع اطلاق نبالها في كل اتجاه بينما هي تركض بخيولها ·

أما كتائب الفرسان الثقيلة فكان سلاحها الرمح الطويل ، وانقسم جيش بيزنطة الى كتائب شكلت وحداته الميدانية ، وضم كل لواء ثلاثة منها ، كما تألفت الفرقة من ثلاثة ألوية أيضا ·

ولكل فصيل من ١٦ جنديٍ عربة تحمل الفئوس والمجارف للجند ، ومطحنة للقمح ، وغير ذلك من أدوات الحرب ومعدات الحصار ، كما كانت تسير خلف الجيش وحدة طبية تضم جراحين وأطباء وحملة نقالات ·

كان الجيش البيزنطي يتدرب على القتال بدقة وانتظام ، كما توفر لضباطه وقادته مراجع عسكرية في الكثير من فنون الحرب وأساليب القتال ·

وأمام هذا الجيش النظامي وقفت ألوية العرب بعدد لايبلغ النصف وسلاح لاتصح مقارنته ، ورغم ذلك لم يخسر العرب معركة واحدة ولا كسب الروم موقعة ، وكان الفضل الاول والاخير يعود الى عقيدة الاسلام السامية ، ومعنويات المسلمين العالية ، وتطلعهم الى الشهادة ، وقتالهم بحمية تفوق ما كان لدى العدو من تفوق في العدد والعتاد .

وكانت ألوية المسلمين ـ وهي الاقل حجما وأضعف سلاحا ـ أسرع في الحركة بدرجة فائقة ، ولهذا كانت استراتيجيتهم العسكرية تعتمد على الهجوم العنيف ، والتقدم المباغت ، والالتفاف الخاطف لقطع خطوط المواصلات وشل وارباك طرق التموين والاعاشة المعادية .

ولم يكن بوسع جيش بيزنطة الثقيل البطيء الحركة أن يجاري سرعة العرب الخاطفة في الارض الفسيحة المفتوحة ، التي لايعترضها مانع .

● معركة اليرموك الحاسمة :

وفي معركة اليرموك أبدى قادة صدر الاسلام من ضروب الحنكة والدراية بأصول الاستراتيجية الرفيعة مالم يبده قائد سابق منذ عهد الاسكندر المقدوني ، ولا لاحق حتى عهد نابليون الكورسيكي . وأبدع خالد وعمرو وشرحبيل ويزيد في تخطيط وتنفيذ استراتيجية الاقتراب غير المباشر ، وأسلوب العمل من خطوط خارجية ، ومناورة الاندفاع نحو العدو بألوية منفصلة من اتجاهات عديدة ، ثم تركيز الهجوم عليه بألوية متصلة في حشد كثيف .

لقد حقق قادة صدر الاسلام الخاصتين الاساسيتين في رجل الحرب :

١ ـ نظموا عملية الحرب بحيث استغلوا كل المزايا التي تضمن لهم التفوق على الخصم .

٢ ـ كما نظموا قيادتهم بحيث تستغل كل قدرات آلة الحرب وأدواتها .

● مباديء الحرب السبعة :

ذلك لأنهم أدركوا جميعا حتمية أن يزجوا بجنـــودهم الى وطيس المعركة بالاسلوب الذي ينيلهم النصر ، والطريقة التي تحقق مبـــاديء الحرب السبعة التي لاغنى عنها للفوز وهي المفاجأة والحشد والتعاون بين الجميع والسيطرة والبساطة والسرعة والمبادأة ·

ثم واصل قادة صدر الاسلام التفكير بصفاء في كل المشاكل التي اعترضت طريقهم ، ووجدوا لكل معضلة حلا في فسحة من الوقت قبـل أن تواجهها جيوشهم ·

كان الجيش الذي عبأ هرقل في مستهل عام ١٤ هـ ٦٣٦ ، أضخم جيش يحتشد في سوريا حتى ذلك الوقت ، وتركزت استراتيجية الروم في الاحتفاظ بالخط الدفاعي الممتد من درعا الى بحيرة طبرية بمحاذاة نهر اليـرموك ·

وفي العاشر من اغسطس ٦٣٦ ميلادية ١٤ هـ احتل العرب الجسـر القائم على وادي الرقاد وراء جيش الروم ، وهو الجسر الذي تتجمـع عنده كافة محاور شبكة مواصلات الروم الرئيسية ، وسرعان ماوثبت ألوية العرب مندفعة الى مواقع الروم ، ودارت المعركة وحمي وطيسهـا حتى تحولت الى مذبحة سـقط فيها تيودورس قائد جيش الروم قتيـلا ، ولم يحل صباح يوم ١١ اغسطس حتى كان الجيش العظيم الذي قضى هرقل أكثر من عام في اعداده وحشده قد زال من الوجود ·

لم تكن هناك عمليات انسحاب ، بل لم يكن هناك شيء على الاطلاق اذ لم يبق من الروم انسان واحد ·

وانتهت بنصر اليرموك عمليات العرب النشطة في سوريا ، اذ عاد أبو عبيدة فاستعاد دمشق وحمص وبعلبك ، واستقبلت جيوش العرب في كل مكان استقبال المحررين ، ولم يحل خريف عام ١٤ هـ ٦٣٦ حتى كانت قد اجتاحت كل سوريا حتى جبال طوروس ·

● قوانين استراتيجية صدر الاسلام :

وبعد هذا الانجاز المذهل ، حق لاستراتيجية صدر الاسلام أن تشرع قوانينها وترسم قواعدها التي انحصرت في تسع نقاط أساسية هي :

١ ـ تحديد طبيعة الحرب وفن ادارة الصراع المسلح وقواعد شن العمليات ومداها الزمني والجغرافي ·

٢ ـ تحديد الاهداف والمهام الاستراتيجية التي تكلف القوات بانجازها لتحدث تغيرا حادا في الموقف العسكري والسياسي السائد بين الخصوم ·

٣ ـ بناء القوات المسلحة ووضع أسلوب تطويرها لتحقيق الاهداف والمهام الاستراتيجية المنشودة ·

٤ ـ التوزيع الجغرافي المناسب لهذه القوات على مختلف جبهات القتال ·

٥ ـ التخطيط الاستراتيجي للاعمال القتالية وأساليب ادارة الصراع المسلح ضد الاعداء ·

٦ ـ اعداد الامة الاسلامية للحرب وتزويدها بالقدرات المادية والطاقات الروحية للصمود والاصرار حتى النصر ·

٧ ـ تدبير احتياجات القوات المسلحة من أدوات الحرب وعتادها وذخائرها وتزويد الجيوش بها في مختلف الميادين ·

٨ ـ تنظيم سلسلة القيادة الاستراتيجية من أفضل عناصر المسلمين وتحديد شكل وأسلوب ادارة دفة الحرب ·

٩ ـ دراسة العدو من كافة زواياه السياسية والعسكرية والاقتصادية والاجتماعية والمعنوية ·

● كلمة ختام :

وخلاصة الامر أن استراتيجية صدر الاسلام تنفرد بخصائص وسمات لاترقى اليها استراتيجية أخرى سابقة أو معاصرة ·

فهي واقعية أبدا لاتكلف نفسا مالاتطيق ، وهي انسانية أبدا لاتنحدر الى رغبة سفك الدماء وابادة الحرث والنسل ، وهي سلمية أبدا لاتقاتل للسيطرة والتوسع وتوجيه عبقرية الانسان الخلاقة الى مجرد الاضرار بالغير كما تفعل الاستراتيجيات الاخرى ، وانما تقاتل للدفاع عن القيم ولرد العدوان ونشر الامن والسلام ، ولعل في ذلك مغزى أن يذكر القرآن الكريم السلام في مائة وثلاثة وثلاثين آية من آياته المحكمات ·
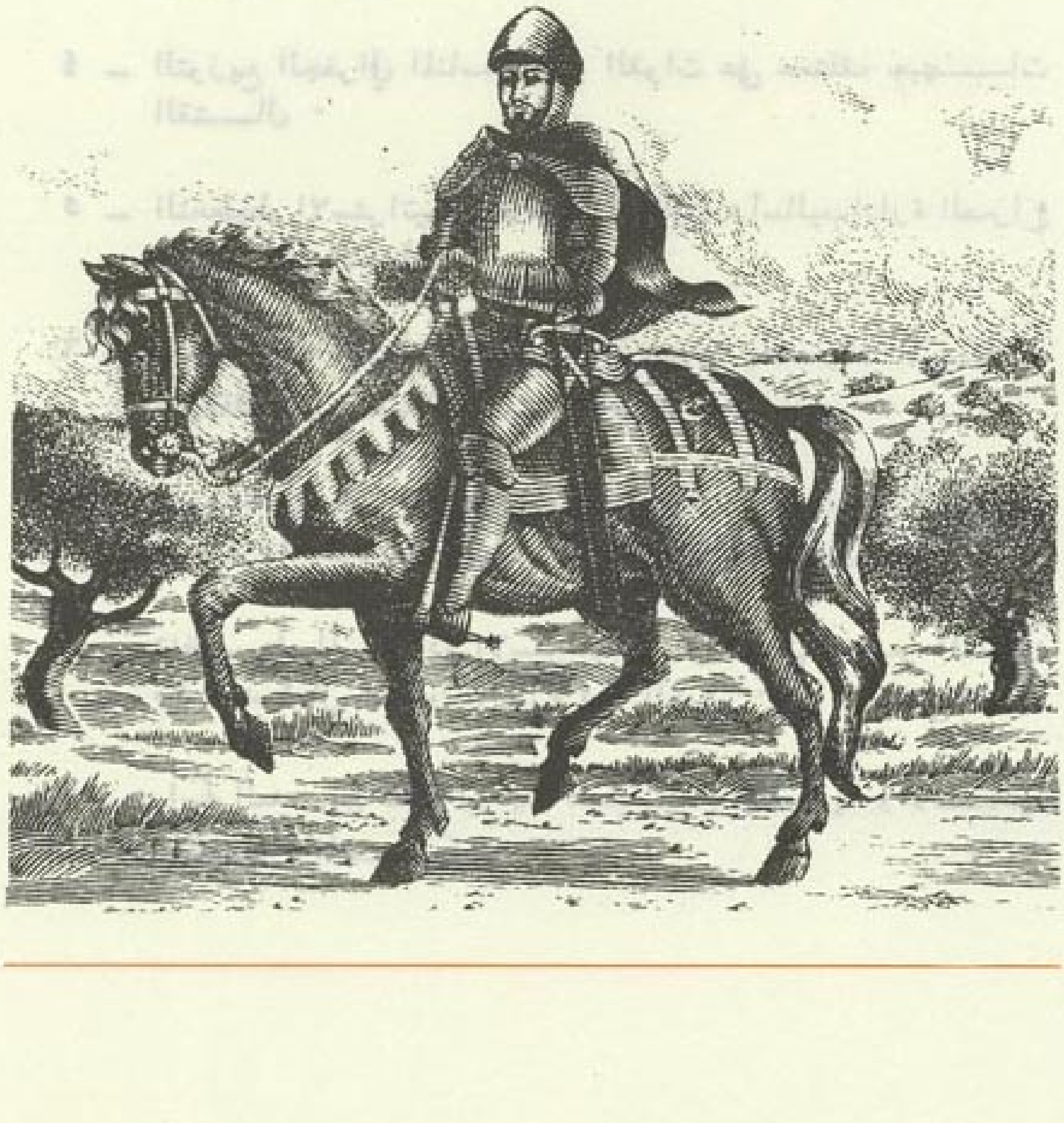
اللواء الركن : حسن البدرى